العنوان:	الاستراتيجية العثمانية في الثلث الأول من القرن السادس عشر
المصدر:	الوثيقة
المؤلف الرئيسي:	شهاب، فؤاد صالح
المجلد/العدد:	مج 11, ع 21
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1992
الناشر:	مركز عيسى الثقافي - مركز الوثائق التاريخية
الشهر:	يوليو - محرم
الصفحات:	42 - 66
رقم MD:	130657
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الدولة الصفوية ، الدولة العثمانية ، العالم العربي ، القرن 16 م ، العالم الإسلامي ، العلاقات الدولية ، السياسة الخارجية ، التحالفات العسكرية ، الشرق الأوسط ، دول المماليك ، إيران ، المغرب العربي ، العراق ،
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/130657

الاستراتيجية العـ

في الثلث الأول من القرن السـا

قبل أن تقرأ

حول نشأة العثمانيين وأصولهم تعددت النظريات . وقد قال الباحث انه اختار
نظرية جيبونز ، وليس معنى ذلك أن النظرية سليمه مائة في المائة فجيبونز مستشرق وإحساس المستشرقين نحو الاسلام وكل ما يمت اليه بصلة معروف للجميع . وقد تحوط الباحث فقال انه يرجو أن يكون بحثه فاتحة لنقاش جديد وحوار جديد حول الموضوع وهو ما ترجوه الوثيقة أيضا .

(الوثيقة)

إعـــداد **د. فـــؤاد شـــهاب**

نشأت الدولة العثمانية وترعرعت بعيداً عن العالم العربي .. وقد بدأت بالاحتكاك بالوطن العربي بعد مرور أكثر من قرنين من الزمن على تأسيسها .. حيث ان النشأة الأولى للدولة العثمانية والتي يتفق معظم المؤرخين المهتمين بهذه الدولة عليها هي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي أو بعبارة أدق عام ١٢٩٠م . وتعتبر آراء جيبونز هي السائدة في موضوع نشأة الدولة العثمانية .
فماذا تقول نظرية جيبونز ؟[١]



ثمانية

دس عشر

● سلطان السلاطين سليمــان الأول أو سليمان الكبير قــاهر القارات الثلاث الذي وصل بالامبراطوريــة العثمـانية الى قمـة تألقها وذروة اتساعها

١ ـ كان أرطغرل أبو عثمان الذي نسبت إليه الامبراطورية رئيس قبيلة صغيرة وفدت على الأناضول في عهد السلطان السلجوقى علاء الدين الأول فرارا من خوارزم أمام زحف جنكيز خان واستقرت في سكود شمال غرب الأناضول .

٢ ـ ولم يكن عثمان وقبيلته مسلمين وكـانوا كفـارا يزاولـون الرعي ، فلما عاشوا في بيئة إسلامية ، دخلوا في الاسلام كأبناء جلدتهم من الترك السلاجقة . وأثار فيهم هذا الدين الجديد رغبة في ادخال الناس فيه ، فدعوا جيرانهم الاغريق الذين كانوا يعيشون معهم في صداقة على الدخول أيضا في حوزة الاسلام ، ولم يكن تحت أمرة عثمان قبل دخول الاسلام إلا أربعمائة محارب يقيمون في دورهم



● خريطة تحدد الامبراطورية العثمانية رسمها عام ١٦٢٦ جون سبيد

ويزاولون حياة فارغة وادعة .

ولكن عدد العثمانيين ما لبث أن ضوعف بين عامي ١٢٩٠ ـ ١٣٠٠ وامتدت حدودهم حتى شارفت حدود الدولة البيزنطية ، وأدى ذلك إلى ظهور جنس جديد انتسب إلى رئيسه وذلك هو الجنس العثماني . ولم يكن هذا الجنس تركياً خالصاً منذ بداية أمره ، ولكنه كان جنساً جديداً مختلطاً ناشئاً عن ذوبان العناصر الأصلية وقوامه الأتراك الوثنيون والاغريق المسيحيون (٢) .

إذن النشأة الأولى للدولة العثمانية كانت أوروبية ، بمعنى ان كوادرها في غالبيتهم كانوا أوروبيي الأصل من بلاد البلقان (٣) .

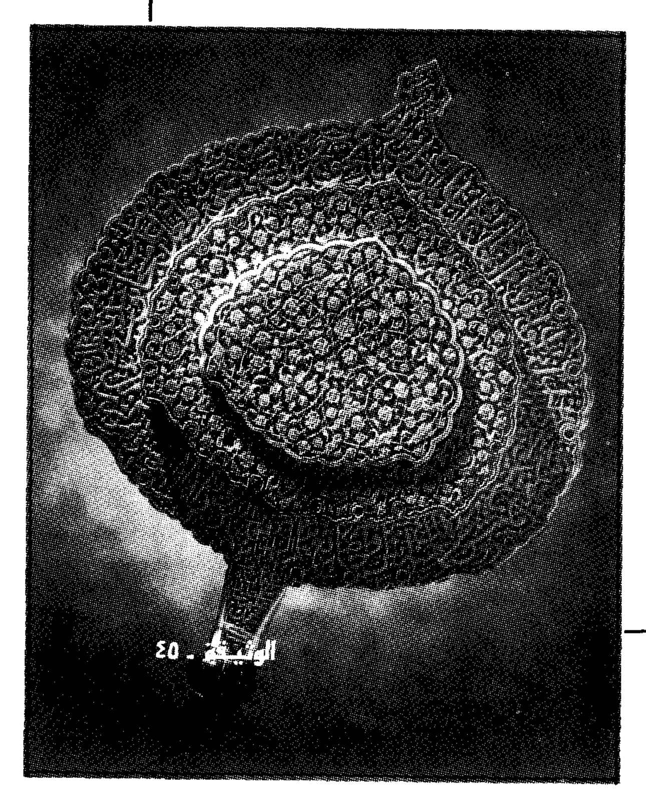
وكانت الفتوحات العثمانية أيضا طوال قرنين من الزمن شاخصة إلى أوروبا . وترتب على ذلك ان المسألة الشرقية بدأت من هذا التاريخ ، ولم تبدأ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كما هو شائع بين عامة الناس . صحيح انها لم تظهر للشرقيين إلا في هذين القرنين ولكنها كانت تعني يومذاك كيفية وقف الغزو العثماني الاسلامي الداهم في ربوع أوروبا .

المسألة الشرقية إذن مسألة أوروبية في أساسها قبل أن تكون قضية عربية واسلامية في القرون المتأخرة تعني «المحافظة على الرجل المريض» «الدولة العثمانية» ، حتى يحين وقت اقتسام أملاكه .

ونحن بهذه المقدمة نفتح الطريق لبحثنا عن الاستراتيجية العثمانية في الثلث الأول من القرن السادس عشر . حيث كانت علاقة الدولة العثمانية بالدول العربية قبل هذا التاريخ (أي قبل مطلع القرن السادس عشر) علاقة مجاملة ومؤازرة . بمعنى آخر انها لم تكن على الاطلاق علاقة منافسة أو عداء ، ولم تنشأ بينهما أي خلافات سياسية أو عقائدية ولا حتى تنافس تجاري أو اقتصادي أو غيره(٤) . ولذا نجد أن مسلمي الشرق كانوا ينظرون إلى الفتوحات العثمانية في الغرب نظرة ارتياح وانتصار كبير لهم . وهكذا نجد السلطان المملوكي إينال يقيم احتفالا كبيرا في القاهرة بمناسبة سقوط القسطنطينية .

هكذا كانت العلاقات بين الدولة العثمانية والدول العربية ، طوال قرنين من الزمن . إلا أنه في بداية القرن السادس عشر حدث انقلاب في الاستراتيجية العثمانية . فبعد أن كان مركز الثقل أوروبيا أصبح عربيا ، وبعد أن كانت الفتوحات في معظمها أوروبية أصبحت حروب العثمانيين متركزة في الناحية الشرقية (العربية) . بمعنى آخر توقفت في مطلع القرن السادس عشر الحروب العثمانية في الغرب أو كادت وانتقلت هذه إلى المشرق العربي . ولقد أثار هذا الانقلاب في الاستراتيجية العثمانية مؤرخي تلك الفترة ، وحاولوا إيجاد تفسيرات علمية معقولة لهذا التحول الكبير .

فمنهم من ذهب إلى ان الدولة العثمانية قد وصلت إلى مرحلة آخر المدى المستطاع في الاتجاه الأوروبي . وانهم لو زادوا على ذلك لما استطاعوا الحفاظ على هذا البعد . لانهم يشبهون العاصمة بالقلب ، فإذا بعدت أطرافه قل ضخ الدم إليه ، ويصبح الحفاظ عليه غالي الثمن . فما بالنا إذا عرفنا ان في آخر هذه الحدود الأوروبية كانت تقوم دول شديدة المراس مثل فيينا التي استعصت على العثمانيين يومذاك . فكان طبيعيا أن



يحقق التاريخ قوانينه في الدولة العثمانية فتؤثر الاتجاه إلى أماكن أقرب إلى القلب وسهلة المنال ، فكان توجهها إلى العالم العربي(٥) .

أما مؤرخون آخرون فانهم يرون ان التوجه العثماني نحو الشرق العربي في بداية القرن السادس عشر ، يعود إلى الأحداث التي كانت تدور في داخل الوطن العربي وحول أطرافه .. إلا ان هؤلاء اختلفوا .. حول تفسير هذه الأحداث فمنهم من يرى بأن السبب الرئيسي للتغير المفاجىء للاستراتيجية العثمانية يعود إلى بروز الدولة الصفوية(٦) على الحدود الشرقية للأناضول .

هذه الدولة التي أسسها الشاه اسماعيل الصفوي في عام ١٥٠٠ بعد أن استطاع توحيد فارس الممزقة آنذاك . وقد اتخذ هذا الشاه المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة(٧) .. وتطلع بعد ذلك للسيطرة على العراق المجاور بسبب ما يملكه العراق من ثروات طبيعية وموقع استراتيجي متميز على الخليج العربي وبسبب وجود الأماكن المقدسة الشيعية هناك ، اضافة بالطبع إلى ضعف العراق . وقد نجح الشاه اسماعيل الصفوي فعلا في السيطرة على العراق في عام ١٥٠٨ . وبذلك أصبحت الحدود العثمانية متاخمة لدولة عسكرية فتية مما عمل على تدهور العلاقات بين البلدين . خاصة وإن القبائل الحدودية كانت دائمة التأرجح في ولائها للدولتين المتنافستين مما ساعد دون شك على ازدياد الصراع بينهما . بالإضافة إلى الاتصالات التي قام بها الشاه اسماعيل الصفوي مع بعض الدول الأوروبية . هذه الاتصالات نبهت العثمانيين إلى خطورة دولة الشاه إذا ما تركت تتحرك دون تأديب . وقد اتجهت هذه العلاقات المتوترة بين العثمانيين والصفويين باتجاه المصادمة العسكرية بعد اندلاع الثورة الشيعية في عام ١٥١١ في شرق الأناضول بقيادة الشاه قولي . هذه الثورة التي استطاعت الاستيلاء على كوتاهية ومحاصرة بورصة . كما تمكن الثوار من السيطرة على معظم المناطق الوسطى والجنوبية الشرقية من الأناضول . وهناك بعض من المؤرخين من يرى بأن تصاعد ونمو هذه الثورة في شرق الأناضول إنما يعود إلى الميول الشيعية لدى السلطان بايزيد اما آخرون فإنهم يفسرون عدم تحرك السلطان بايزيد لإخماد هذه الثورة منذ اشتعالها بطريقة دموية إنما يعود لادراكه بأن الأفكار الشيعية قد لاقت كثيراً من الآذان الصاغية عند جند الانكشارية ، ولهذا تراسل مع الشاه اسماعيل الصفوي أملاً في إقناعه بالتوقف عن أهدافه الرامية إلى نشر المذهب الشيعي في الأناضول(٨) ، ولكن بعد أن باتت هذه الثورة تشكل خطراً على الدولة العثمانية ، اضطر السلطان بايزيد الثاني أن يبعث الصدر الأعظم (خادم علي باشا) على رأس ثمانية

آلاف من الانكشارية لاخماد الثورة . ولم يكتف العثمانيون باخماد هذه الثورة بطريقة دموية ، بل اختط سليم الأول بعد تسلمه السلطة بعد أبيه طريقا آخر أشد نكاية مما اتبعه والده ، فقام بتهجير الشيعة من جنوب الأناضول إلى البلقان مم استثار غضب الشاه اسماعيل الصفوي بحكمه الداعم معنويا لهذه الجماعة المجاورة له في الحدود وأعلن الحرب على العثمانيين . وفي ٢٧ ابريل عام ١٥١٤م التقى الجيشان الصفوي والعثماني في جالديران قرب العاصمة الصفوية «تبريز» . وهي منطقة سهلية من أذربيجان ، شمالي بحيرة أورميه ، شمالي شرقي بحيرة وان[٩] . ولما كتب للعثمانيين النصر بسبب تفوق مدفعيتهم .[١٠] الحديثة يومذاك وكذلك بندق الرصاص . أدركوا عدم استطاعتهم السيطرة على فارس بسبب هروب الشاه اسماعيل الصفوي إلى داخل فارس واستخدامه سياسة الأرض المحروقة وكذلك بسبب وعورة الهضبة الفارسية . كل تلك العوائق إضافة إلى ثورة الجند الانكشارية على قائدهم بسبب عدم تأييدهم لفكرة متابعة الهجوم .. حيث كان المحرض الأول لهذا الامتناع قاضى عسكر الانكشارية (جعفر جلبي) الذي أعدمه سليم بسبب ذلك في ٢٩ أغسطس[١١] ١٥١٤ دفعت بالعثمانيين إلى أن يقفوا عند هذه الحدود . ويدركوا استحالة التمكن من القضاء على الدولة الصفوية فآثروا حصارها .. وهذا ما يفسر توجههم نحو الشام ومصر وبقية الدول العربية من وجهة نظر أرنولد توينبي .. حيث يقول هذا المؤرخ بأن الوضع العسكري بعد جالديران أصبح راكداً بمعنى أنه تبين لكلا الطرفين استحالة السيطرة على الآخر .. وإذا ما أراد أي طرف أن يقوض قوة الطرف الآخر عليه أن يحاصره .. ولهذا يرى أرنولد توينبي أن توجه العثمانيين نحو الشام ومصر لم يكن إلا جزءا من الصراع العثماني الصفوي .[١٢] بمعنى آخر إن العثمانيين أرادوا أن يدعموا أنفسهم في هذه المنطقة ازاء هذا العدو القوي فاستولوا على ما يجاوره ويحيط به من الدول العربية ليكون سداً منيعاً في وجه هذا الخطر الجديد . وهذا ما يفسر كما نعتقد بقاء فارس بعيداً عن الامتدادات العثمانية مقارنة لما جرى بعد ذلك بسنوات قليلة بالنسبة للعالم العربي الذي أصبح من المناطق الجغرافية الكبرى التي تكونت منها الامبراطورية العثمانية منذ النصف الأول من القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين . أما أهم نتائج معركة جالديران فيمكن تلخيصها في الآتي :

١ - فعالية بندق الرصاص والمدفعية التي استخدمها العثمانيون ضد قوى الصفويين المؤلفة بغالبيتها من التركمان الفرسان . وكان ذلك حاسماً في تاريخ المنطقة ، خاصة بعد أن انتصر هذا السلاح بعد سنتين على المماليك .

٢ ـ ضم الأناضول الشرقية نهائيا إلى الامبراطورية العثمانية ، واحتلال ديار بكر ، ومنطقة مرعش في عام ١٥١٥ ، من أيدي قادة التركمان ، وقد كسبت الدولة العثمانية من وراء ذلك فوائد استراتيجية واقتصادية كبيرة ، حيث أصبحت الهضبة الأناضولية في الشرق حاجزا للدولة العثمانية من الغزاة القادمين من أواسط آسيا . كما أصبح العثمانيون ونتيجة لذلك مسيطرين على طرق نقل الحرير الفارسي بين تبريز وحلب ، وبين تبريز وبورصة . حيث قدرت واردات ولاية ديار بكر في عام ١٥٢٨ بثمن واردات البلقان بكامله[١٣] .

٣ ـ أدت هزيمة جالديران إلى ضرورة إعادة تنظيم الجيش والادارة في الدولة الصفوية ، بعد أن ضعفت العلاقة السياسية بين الشاه والقبائل التركمانية المعروفة بالقزلباش ، وكذلك بددت جالديران أسطورة الشاه المرشد الأكبر الذي لا يقهر ، ففقد احترام أتباعه له . وقد شغل ذلك الحكام الصفويين طيلة القرن السادس عشر مما مكن العثمانيين من الاستيلاء على العراق دون معارضة صفوية تذكر .[١٤]

ومؤرخون آخرون لا يذهبون مذهب توينبي في القول بالتحدي الحضاري الذي دفع بالعثمانيين لمواجهة الصفويين . ويعتقدون ان الدولة العثمانية أرادت أن تضفى على سلطانها السياسي سلطانا روحيا . فاتجهت إلى الدول العربية شاخصة من وراء ذلك بالطبع إلى القضاء أولا على الدولة المملوكية حتى يتسنى لها وراثتها في الأماكن المقدسة . وقد أعطت معركة جالديران الفرصة للعثمانيين كي يحققوا سياستهم التوسعية في الشرق . فكيف كانت العلاقات العثمانية المملوكية قبل معركة جالديران ؟.

منذ البداية كان هناك اتجاهان في العلاقات العثمانية المملوكية :

اتجـاه التحـالف :

والتعاون ضد الأخطار التي تعرض لها الشرق الأوسط الاسلامي ، «تيمور لنك» هزيمة بايزيد في معركة أنقرة عطلت فكرة هذا التحالف ، إقامة السلطان إينال احتفالا رسميا بمناسبة سقوط القسطنطينية . الخطر البرتغالي ـ مساعدة بايزيد الثاني للسلطان قنصوه الغوري حيث أرسل الأول أخشابا لبناء الأسطول[١٥] ، كذلك اشتبكت السفن المصرية والعثمانية من ناحية مع سفن فرسان القديس يوحنا عام ١٥١٠ بالقرب من الاسكندرية وفي عام ١٥١١ نجح العثمانيون بإيصال أربع مائة مدفع وطنين من البارود إلى المماليك . وحتى سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ . كان الحكام العثمانيون يعترفون بالأولوية الدينية والسياسية للمماليك كزعماء لدار الإسلام ، بينما خصصوا لأنفسهم دوراً متواضعاً هو دور «البكوات حماة الأطراف» الذين يدافعون عن الحدود العامة لدار

الإسلام . أما المماليك فقد كانوا ينظرون إلى تحركات العثمانيين كجزء من المسألة الإسلامية العامة . ويؤكد ابن أياس بأن محمد الثاني الملقب (بالفاتح) كان أول زعيم من آل عثمان يتخذ لنفسه لقب سلطان . بمعنى آخر أن محمد الثاني بدأ في مساواة نفسه بسلاطين مصر ، بعد أن كان العثمانيون يكتفون بلقب «غازي» ، الذي يعني المجاهد في سبيل العقيدة .

وإن تلقيب آل عثمان لأنفسهم بالسلاطين يعني دون شك رغبتهم في تبني سياسة الدولة العظمى . وبالتالي فإن هذه التسمية لا بد وأن تنعكس بالسلب على العلاقات العثمانية المملوكية . لأن العلاقات بينهما أصبحت الآن علاقات تنافس وصراع على السيطرة والهيمنة وبالدرجة الأولى على الأولوية في زعامة العالم الاسلامي .

اتجاه الخلاف :

وهكذا بدأ الاتجاه الآخر في العلاقات العثمانية المملوكية وهو إتجاه الخلاف وقد بدأ هذا الاتجاه التنافسي بفضيحة دبلوماسية عام ١٤٦٣ عندما رفض السفير العثماني الانحناء لحاكم مصر .[١٦] .

كما كان الخلاف حول تخطيط الحدود بين أعالي الشام وجنوب الأناضول وخاصة حول امارة البستان .[١٧] حيث تدخل المماليك والعثمانيون في شئون هذه الامارة العازلة بين منطقتيهما فأيد كل منهما أميراً تركمانيا ، ومارس النفوذ من خلاله ونتج عن هذا اقتتال بين أفراد الأسرة الحاكمة في امارة البستان وتأزم العلاقات المملوكية العثمانية . كما أدى التجاء الأمير جيم - ابن السلطان محمد الثاني الذي ثار على أخيه بايزيد حين خلف أباه في السلطنة عام ١٤٨٢ - منافس بايزيد الثاني في العرش إلى مصر إلى دفع هذا الأخير للاغارة على طرسوس ، إلا أن قايتباي هزمهم وعقد الصلح بين الفريقين عام ١٤٩١[١٨] . وهناك مؤرخون آخرون يرون بأن تحالف الأمير جيم مع السلطان المملوكي قايتباي كانت نتيجته الفشل والهزيمة ، وهذا الذي دفع بالأمير جيم للجوء إلى أوروبا حيث توفى هناك عام ١٤٩٥[١٩] . ونحن نميل إلى وجهة النظر الثانية لانها تستند في تفسيرها لهذا الصراع ونتائجه على ميزان قوى الدولتين في تلك الفترة والذي كان دون شك في صالح الدولة العثمانية .

لكن هذا الخلاف لم يتطور إلى نزاع عنيف إلا بعد أن وقف المماليك موقفا مائعا في حرب السلطان سليم مع الشاه اسماعيل الصفوي في جالديران ، حيث أوعز المماليك لأمير إمارة البستان علاء الدين ، بالتعرض للمؤن العثمانية الذاهبة إلى الجيش العثماني الزاحف على فارس ، وذلك بسبب توتر العلاقات بين السلطان المملوكي قنصوه الغوري والسلطان العثماني سليم الأول[٢٠] .

وكان دافع المماليك من وراء موقفهم هذا ، اعتقادهم بأن الحرب سوف تضعف الطرفين العثماني والصفوي ويصبحون بذلك هم أسياد الموقف . ولكن شاءت الظروف ان العثمانيين بعد انتصارهم في معركة جالديران لم يتبعوا الفرس إلى الداخل وإنما انتهى الأمر بهم إلى المصالحة السلبية التي عبر عنها توينبي بالموقف الراكد .. والتي نستطيع أن نقول انه الموقف المجمد بلغة العصر الحديث . ومن هنا يعتقد بعض المؤرخين ان معركة العثمانيين مع الصفويين لم تكن سوى خطوة أولى استهدفوا من ورائها تحجيم القوة الصفوية فقط للانصراف بعدها إلى تحقيق مطامعهم في الاستيلاء على البلاد العربية. ولذلك نجد سليم الأول يقطع رأس أمير امارة البستان الموالية للمماليك يومذاك ورأس ابنه ووزيره ويرسلها إلى قنصوه الغوري السلطان المملوكي على مصر ، متهما إياهم بالخيانة لموقفهم من اعتراض المؤن التي كانت ذاهبة من الدولة العثمانية إلى جيشهم في جالديران[٢١] .

وأحب هنا أن أوضح بعض العوامل السيكولوجية التي حركت السلطان سليم ودفعته إلى هذه الشدة التي أسلفناها في معاملة حلفاء المماليك . ذلك بأنه كان يريد كسر شوكتهم لانه كان يعلم مدى الاعتزاز والكبرياء الذي داخل نفوسهم بسبب تاريخهم الطويل في الدفاع عن الاسلام في مواجهة أعداء الاسلام .

فضلا عن ذلك فإن السلطان سليم بذكائه الخارق ووقوفه على سيكولوجيات الشعوب والحكام المماليك أراد أن يستثيرهم فيبدأون هم بالعدوان ، حتى لا يكون في أنظار العالم الاسلامي هو المعتدى . خاصة وانه يعلم جيدا ان المماليك بما عُرف عنهم من الشجاعة والجرأة والاقدام (الجانب الاندفاعي تجاه أي استثارة توجه لهم) ، لن يسكتوا أبداً على تصرفه . وقد نجح السلطان سليم في تخطيطه هذا وفي توقعاته ، حتى انهم خرجوا إليه فعلا في مرج دابق عام ١٥١٦ .

وقد حاول كلاهما (السلطان العثماني والسلطان المملوكي) أن يستثير مشاعر المسلمين ليقفوا في صفه . فاستصدر السلطان سليم فتوى من علماء السلطنة ومفتى استنبول الأكبر «ان من يساعد أعداء الله هو عدو الله أيضا» وأخرى تقول بأن المماليك خانوا الاسلام وانهم يساعدون الكفار . أما هدفه من هذه الحرب فهو «تحرير المضطهدين وحماية المسلمين من العدو الخارجي»[٢٢] .

وقد حاول المماليك على غرار العثمانيين ، اضفاء الطابع الديني على الحرب ، فلقبوا السلطان سليم بملك الروم واتهموه بالارتداد عن الدين الحنيف والسنة ، سيما وانه يحلق ذقنه ويرتدي القفطان والعمامة الكبيرة بدلا من الملابس الاسلامية التقليدية[٢٣] .

وقد التحم الجيشان في ظلال هذه المعارك الدعائية والحرب الكلامية ، وكان النصر في مرج دابق حليف العثمانيين[٢٤] . وقد انتحر في هذه المعركة السلطان المملوكي قنصوه الغوري . وقد روى ابن اياس : كيف أن السلطان عندما تأكد من الهزيمة تناول السم من الخاتم الذي يحمله بصورة مستمرة ، وعندما انساب السم إلى جوفه ، فقد وعيه وسقط عن الحصان ومات على الفور . وقد حضر السلطان سليم صلاة الجمعة بحلب وخطب الخطيب بإسمه ، وعندما سمع السلطان سليم الخطيب يقول في تعريفه «خادم الحرمين الشريفين» ، سجد لله تعالى شكراً وقال : «الحمد لله الذي يسر لي أن صرت خادم الحرمين الشريفين» وبذلك اتخذ لنفسه اللقب الذي كان يحمله حكام مصر منذ صلاح الدين ، ووضع نفسه زعيماً روحياً ومدنياً لدار الاسلام[٢٥] ، وبهذا استطاع سليم أن يحقق في فترة وجيزة أهداف الحرب بكاملها : الحاق الهزيمة بالمماليك وبسط الهيمنة العثمانية .

وبعد موت قنصوه الغوري ، وقع اختيار المماليك في مصر على طومان باي ابن شقيقة قنصوه الغوري وكان في الثامنة والثلاثين من عمره ، ذلك الرجل المشهور في التاريخ ، الذي يعتقد الناس ان شهرته قد جاءت من وراء انتصارات كبيرة . والحقيقة ان الرجل قد هزم في معركة الريدانية عام ١٥١٧ . وقد جاءت شهرته من وراء موقف الإباء والشمم والحفاظ على قيم الحكم وسمعة الدولة . فقد فرض عليه العثمانيون المنتصرون على سلفه قنصوه أن يضرب السكة باسمهم وأن يخطب الجمعة باسمهم . ولكنه أبى حفاظا على سمعة دولته المملوكية واستمساكا بالقيم التي دافعت عنها هذه الدولة طوال أكثر من قرن ونصف من الزمن . وأبى أن تكون نهاية دولة المماليك العظيمة هي الاستسلام من قبله . فأبى الخضوع للعثمانيين ولم يقبل شرطا من شروطهم وآثر الحرب رغم وثوقه بأنه مهزوم ولا بد وهذا ليس بغريب على مقاتل مقدام مثل طومان باي الذي تتجسد فيه أفضل مزايا الفارس المملوكي . من أجل ذلك لم يهضم التاريخ حقه وهو المهزوم وحفظ له شهرته عبر الأجيال لهذا الموقف الأخلاقي العظيم .

وقد أعدم طومان باي في ١٣ ابريل عام ١٥١٧م على باب زويلة ، وفي جو مفعم بروحه النضالية المقاتلة والذين قاتلوا معه هذا القتال الصعب[٢٦] .

ولقد استتبع هزيمة طومان باي ، أن أصبح الحجاز تابعا للحكم العثماني . لأن الحجاز كان يتبع بأرض مصر تبعية تلقائية ، والمقصود بالتبعية التلقائية هو أن الحجاز لا يرتبط بدولة معينة أو بسلطة معينة في مصر وإنما يرتبط بمصر ذاتها بصرف النظر عن الحكومة أو الدولة القائمة فيها[٢٧] . لهذا سارع الشريف بركات بارسال ابنه «أبو نمي» إلى القاهرة حاملا للسلطان



● ابراهيم باشا. وزير السلطان سليمان وذراعه اليمنى على ابواب فيينا على مسافة الف ميل من استنبول حيث توقف زحف الامبراطورية.

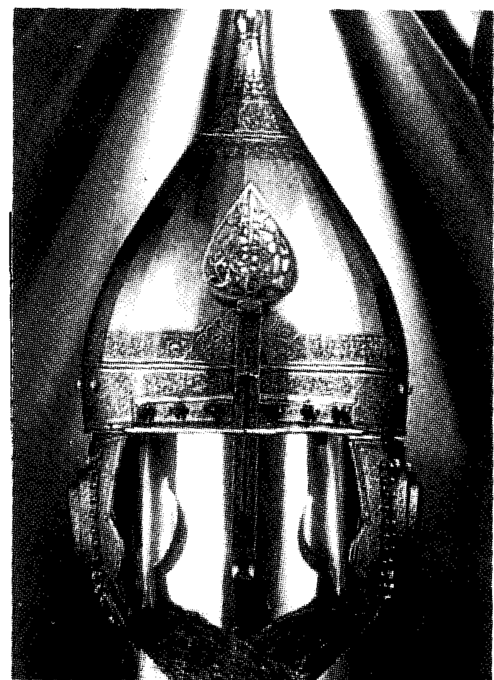
سليم تهاني أبيه ومفاتيح الحرمين الشريفين وهذه كانت إقراراً بالسيادة . وقد أكرم السلطان وفادة «أبي نمي» وأعطاه تفويضاً بحكم والده . ويعزو بعض من المؤرخين قبول الشريف بركات للسيادة العثمانية إلى رغبته في مواجهة الخطر البرتغالي وهذا يتطلب مساعدة دولة اسلامية كبيرة بالإضافة إلى ان الحجاز يجب أن يكون مسالما مع الدولة الحاكمة في مصر ليستفيد من الأوقاف المحبوسة على الحرمين الشريفين وفقراء مكة والمدينة . كما ان دخول نظام الحكم في الحجاز تحت السيادة العثمانية سيقوى من مركز الشريف أمام خصومه في الشرافه .

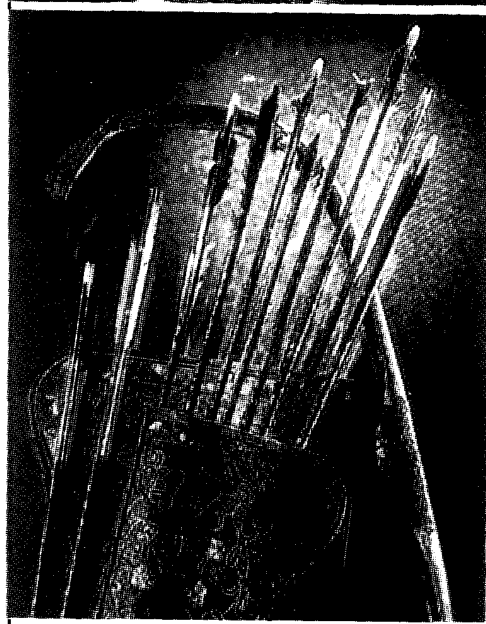
وهناك مؤرخون آخرون يفسرون هذا الانقلاب المفاجىء في الاستراتيجية العثمانية والذي تحدثنا عنه آنفا بأنه يعود إلى رغبة العثمانيين في الدفاع عن العالم الاسلامي ضد الخطر البرتغالي والأسباني الذي بدأ يشكل كماشة على العالم العربي . وانهم بعد أن فقدوا الأمل في أن يقوم المماليك بصد الهجوم البرتغالي الشرس على الحرمين الشريفين ، بالرغم من المساعدات الكبيرة التي قدموها اليهم ، قرروا أن يقوموا هم أنفسهم بذلك خاصة وان العلاقات بين الصفويين والبرتغاليين أخذت في التوثق .

فإذا تركنا الأمور الاقتصادية وهي إعادة التجارة الشرقية إلى سابق عهدها وتركنا الأمور السياسية وهي

صراعهم مع الصفويين والمماليك ، فمن المؤكد ان تهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة في الحجاز كان يقض مضاجعهم . حيث اننا يجب أن لا ننسى دور «الجهاد» وانه أساس من أسس بنية الدولة العثمانية ونشأتها . فالسلطان يجب أن يكون غازياً في سبيل الاسلام ومقدساته(٢٨) .

وينظر هؤلاء المؤرخون إلى المساعدات التي قدمتها الدولة العثمانية إلى المماليك لمجابهة البرتغاليين والتي تحدثنا عنها آنفا ، بأنها مواجهة عثمانية برتغالية غير مباشرة وبأن سيطرة العثمانيين على مصر ، ما هي إلا مرحلة استعداد للمواجهة المباشرة(٢٩) مع العدو الذي بدأ بالفعل يهدد الأماكن المقدسة ، خاصة بعد تعذر صده من قبل الدولة القائمة على تلك الأماكن يومذاك . وبعد أن أخذت الأحداث في الخليج منحا خطراً بتقرب البرتغاليين من القوة الصفوية المهزومة في جالديران وتوقيعهم اتفاقية معهم في عام ١٥١٥ تعهد فيها البرتغاليون بمساعدة شاه فارس اسماعيل الصفوي على غزو كل من البحرين والقطيف ، وكذلك الوقوف معا ضد الدولة العثمانية(٣٠) . وقد استفاد البرتغاليون كثيراً من هذا الاتفاق حيث سهل لهم هذا التحالف القضاء على القوى العربية في الخليج العربي ونقصد بها هرمز ، التي كانت تعتبر آنذاك أهم المراكز الثلاثة لتجارة الشرق والسيادة العالمية . أما المركزان الآخران فهما مالاقا عند مدخل مضيق سنغافورة وعدن عند مدخل البحر الأحمر وبعبارات أخرى ، فان العالم الاسلامي بدلا من أن يتوحد ضد ثاني موجة استعمارية غربية بعد الحروب الصليبية على





الأراضي المقدسة في فلسطين والتي كانت تهدف فيما تهدف إليه تدنيس الأماكن المقدسة ، نجدهم يتصارعون فيما بينهم من أجل السيطرة وريادة العالم الاسلامي لا غير ، وبذلك نسوا القضية العامة ومكنوا منهم أعداء الاسلام .

وبالرغم من أن اليمن قد سقطت سلميا في أيدي العثمانيين بعد أن سقطت مصر في أيديهم . حيث كان للمماليك جيش كان قد ذهب إلى اليمن للتصدي للبرتغاليين ، ولما سمع قائد الجيش المملوكي آنذاك في اليمن بموت طومان باي ، فانه آثر اتباع سياسة الأمر الواقع والدخول في سيادة الدولة العثمانية . فاعترف (اسكندر الشركسي) بالسيادة العثمانية حتى يقضي على الخلافات التي ثارت بين صفوف جيشه نتيجة لموت قنصوه الغوري وحتى يقوى جانب الحملة في اليمن أيضا . إضافة إلى ان خضوعه للدولة العثمانية جعل منه صاحب كيان واضح وأصبح من حقه أن يطلب المساعدات ضد القوة المعادية له ، أما إذا كان قد امتنع عن الخضوع كان سيصبح هو ومن معه كمن لا دولة لهم[٣١] . بالرغم من سقوط اليمن السلمي على هذا النحو في أيدي العثمانيين ، فإن نفوذهم قد اتسم فيها بالضعف حتى عام ١٥٣٨ . وقد أصيبت القوى المحلية في الخليج بالخيبة نتيجة لهذا التأخر العثماني خاصة وانها كانت تتوقع أن تتابع الدولة العثمانية خطى الدولة المملوكية في المضي قدما في قتال البرتغاليين ، وفي أن تكون أوفر حظا في الصراع[٣٢] .

ويفسر بعض المؤرخين هذا الموقف الدفاعي العثماني في المحيط الهندي بانشغالهم في الجبهة الأوروبية حيث استولى السلطان سليمان على بلغراد في أغسطس ١٥٢١ ، وعلى جزيرة رودس في ديسمبر ١٥٢٢[٣٣] ، وهزم ملك المجر في معركة موهاكس في أغسطس ١٥٢٦[٣٤] ، ثم تقدمت جيوشه بعد ذلك إلى فيينا عاصمة النمسا ودقت أسوارها عدة أيام وكادت المدينة أن تستسلم ، لكن السلطان سليمان رفع الحصار عن المدينة في ١٥ أكتوبر ١٥٢٩ لقلة المؤن وبعد المسافة[٣٥] . ولم تكن حملة ١٥٣٢ على فيينا بأوفر حظا من سابقتها .

على أن هناك مؤرخين آخرين يفسرون عدم اتباع العثمانيين لسياسة هجومية ضد البرتغاليين في العقدين الثاني والثالث من القرن السادس عشر إنما يعود إلى عدم استعداد العثمانيين الحربي لمثل هذه المجابهة يومذاك اضافة إلى أن الدلائل أثبتت ان العثمانيين الذين تصدوا لزعامة العالم الاسلامي ، لم يقدروا النتائج السلبية التي كانت سوف تنعكس على ذلك العالم وعلى دولتهم من جراء التحولات الكبرى التي طرأت على خطوط التجارة العالمية . وكذلك تأثير هذه التحولات الكبرى على الاقتصاد العالمي وموازين القوى الدولية[٣٦] .

اننا نستطيع أن نغفر للعثمانيين تأخرهم في مجابهة البرتغاليين ولكننا لا نستطيع أن نفهم الأسباب التي دفعت بسلطان في مكانة السلطان سليمان القانوني إلى اختيار شخصية مثل شخصية سليمان باشا الخادم لقيادة حملة مهمة على اليمن للأسباب التي ذكرناها . وهو العارف بشخصية هذا القائد الذي تربى مع النساء في القصر السلطاني والمعروف بغدره وحبه لسفك الدماء بالاضافة طبعا إلى كبر سنه حيث انه كان في الثمانين من عمره وكان بحاجة إلى أربعة أشخاص لكي يضعوه فوق ظهر جواده[٣٧] .

لقد كانت حملة اليمن بحاجة إلى قائد محنك عالم بسيكولوجية الشعب اليمني وبالصراعات الدائرة في المجتمع نفسه . وذا ارادة قوية للانتصار على البرتغاليين . وأن يتصرف بمسئولية تتناسب وانتماءه إلى دولة اسلامية عظمى كالدولة العثمانية . حتى يتمكن من كسب الجبهة الداخلية في اليمن وفي عدن بصفة خاصة ، لكونها قاعدة الارتكاز ضد البرتغاليين في المحيط الهندي فضلا عن الصفويين والبرتغاليين في الخليج العربي . الا أن سليمان باشا تصرف بشكل يعكس عدم فهمه التام لأهمية الحملة وأهمية الصراع مع البرتغاليين ، فبعد أن فتح عامر بن داود الطاهري حاكم عدن أبوابها لجيش سليمان[٣٨] . واعدا إياه بوقوفه إلى جانب العثمانيين ضد البرتغاليين . فإن القوات العثمانية ما كادت تدخل عدن حتى انطلقت في السلب والنهب . أما سليمان باشا فقد قام بقتل عامر بن داود الطاهري . وقد فشل في استدراج شرف الدين إلى نفس المصير فشوهت هذه التصرفات سمعة الجيش العثماني وسمعة الحكم العثماني في اليمن خاصة ، وفي الأقطار الاسلامية على وجه العموم ، وهذا هو الذي يفسر لنا الموقف المتحفظ للمسلمين الهنود في الاشتباك البحري الذي وقع بين سليمان باشا والبرتغاليين في (ديو) والذي كانت الهزيمة فيه من نصيب العثمانيين . ويتفق كثير من المؤرخين على أن فشل هذه العملية الضخمة ، يعود إلى سوء القيادة وعدم الشجاعة ، ولو انه توفر للعثمانيين يومذاك القائد الذي يتناسب وأهمية هذه الحملة لما بقيت الهند تحت السيطرة البرتغالية . ولما بقيت القوى الاسلامية في المحيط الهندي ممزقة ، هذا التمزق الذي أوجد فرصة البقاء والاستمرار للاستعمار البرتغالي في الخليج ومنطقة المحيط الهندي .

استيلاء العثمانيين على المغرب العربي :

لم يكن التدخل العثماني في شمال افريقيا متوقعا أبداً ، كما لم يكن في حسبان أحد بما في ذلك الدولة العثمانية نفسها ، لان الامبراطورية العثمانية عندما وجهت حروبها نحو الشرق لم تكن لتطمح بأكثر من

القضاء على الدولة المملوكية ومحاصرة وتحجيم الدولة الصفوية وغلق البحار العربية أعني البحر الأحمر في وجه البرتغاليين ، لماذا اذن توجه العثمانيون نحو بلاد المغرب العربي ؟.

لم تستول الدولة العثمانية على المغرب العربي بالقهر العسكري كما حدث في المشرق «جالديران ١٥١٤ ومرج دابق ١٥١٦ والريدانية ١٥١٧» بالاضافة للمعارك الحربية والحملات التي خاضتها القوات العثمانية لفتح اليمن والعراق ، وإنما أتى استيلاؤها عليه نتيجة لاشتداد الصراع بين الاسلام والمسيحية .

ونتيجة للغارات والحملات التي كان يشنها الأسبان على العرب والمسلمين في شمال أفريقيا . فما كان من شعوب هذه المنطقة خاصة القوى المسيطرة إلا أن طلبت وبإلحاح شديد من العثمانيين أن يدخلوا معهم في صراعهم ضد قوى العدوان على العرب والاسلام .

ولقد ارتبط الصراع الأسباني العربي في المغرب العربي بعروج وأخيه خير الدين بربروسا[٣٩] . وكان الأول قد اتفق مع السلطان الحفصي محمد بن الحسن ١٤٩٤ ـ ١٥٢٦ الذي سمح له باستخدام جزيرة «جربة» كقاعدة لاسطوله مقابل مشاركة السلطان بخمس الغنائم[٤٠] . وقد سمى عروج نفسه قائد الجزيرة ، وبدأ في انزال الضربات بالسفن الاسبانية ، خاصة وان أتباعه قد زادوا نتيجة لعنف الأسبانيين ، وكذلك ارتفع عدد سفنه من سفينتين إلى اثنتى عشرة سفينة سنة ١٥١٢[٤١] . وقد حاول عروج مساعدة الشعوب والحكام الذين يطلبون مساعدته للوقوف في وجه الغزاة الأسبان . وبسبب الخلاف الذي نشب بينه وبين الحاكم الحفصي ، نقل عروج قاعدته من جربة إلى جيجل . وقد تم هذا الاختيار بسبب ممارسة أهل جيجل أنفسهم للقرصنة ، وبسبب الشعبية التي كان يحظى بها عروج نفسه في هذه المنطقة . ومن هذه المنطقة قدم عروج يد العون لأهالي الجزائر الذين طلبوا مساعدته بسبب تعرضهم لضربات أسبانية من القلعة التي كانت للأسبان في مواجهة الجزائر . وكذلك ساعد عروج في عام ١٥١٧ أهالي تلمسان في التخلص من حاكمهم أبو حمو الذي كان يتعاون مع الأسبان . ومع تزايد قوة عروج ، شعر الأسبان بخطره فقرروا التخلص منه وهكذا أرسلوا إليه حملة بقيادة «دون مارتن» هذه الحملة التي استطاعت قطع الطريق بين تلمسان والجزائر ، وبعد معارك ضارية حارب فيها عروج كالأسد قتل عروج مع كثير من أنصاره ، وكان عمره حين قتل أربعة وأربعين عاما .

كان خير الدين نائبا لأخيه في الجزائر ولما وصله نبأ مقتل أخيه خشى ثورة المناطق المجاورة ، وثورة سكان المدينة الناقمين ، كما خشى تدخل

الأسبان . وأدرك خير الدين ببعد نظره انه لن يستطيع أن يجابه الموقف بقواه الخاصة ، أو أن يجابه الأسبان بمغرب ممزق وأن ليس أمامه سوى الاعتماد على قوة اسلامية أخرى وهي «الدولة العثمانية التي كانت أنباء فتحها للشام ومصر قد وصلت إليه ، وذلك للحصول على المساعدات المالية والعسكرية بالاضافة لحصوله على الانتماء لدولة قوية(٤٢) . فكان اعلان ولائه مفاجأة سارة للسلطان العثماني سليم الذي قبل دون تردد ، وسارع بارسال ألفين من الانكشارية ، كما سمح لرعايا الدولة العثمانية بالتطوع في جيش المغرب حتى يتمكن من رد الهجمات الأسبانية البرتغالية(٤٣) . وهكذا دخلت الجزائر منذ ذلك الوقت ١٥١٨ ضمن الولايات العثمانية . وفي الفترة من ١٥٢٠ ـ ١٥٢٥ استطاع خير الدين اخضاع الملاحة في البحر المتوسط لسيادة الأساطيل الاسلامية حتى هابته جميع الدول الأوروبية وأصبح مشهورا عندها باسم «خير الدين بربروس» أي ذي اللحية الحمراء . وقد استطاع هذا القائد بعد موافقة السلطان العثماني الاستيلاء على تونس سنة ١٥٣٤ والقضاء على حكم الدولة الحفصية فيها قضاء مؤقتا . وبقيت تونس فترة من الزمن يتعاقب عليها الأتراك العثمانيون حتى سيّر اليها السلطان العثماني حملة ضخمة يقودها سنان باشا فاتح اليمن ، فانتزعها من الأسبان وقضى نهائيا على الدولة الحفصية سنة ١٥٧٤(٤٤) .

أما طرابلس الغرب فقد خضعت للسيطرة العثمانية في سنة ١٥٥١ بعد أن طردوا الأسبان منها ، وبهذا أصبحت ولاية عثمانية ، كما صار ميناء طرابلس معقلا هاما من معاقل الدولة العثمانية في شمال أفريقيا وفي البحر المتوسط ، لكن المغرب الأقصى ، تحت حكم الأشراف السعديين ظل ممتنعاً على العثمانيين واستطاع أن يحتفظ باستقلاله حتى أوائل القرن العشرين حين اقتسمته أسبانيا وفرنسا .

ويمكن ارجاع توفيق الدولة العثمانية في شمال أفريقيا منها في المياه الجنوبية للأسباب التالية :

(١) العمليات التي تدربت عليها البحرية العثمانية كانت أكثر ملاءمة لحرب البحار منها لحرب المحيطات وما وراء البحار في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي .

(٢) قرب الشمال الأفريقي من تركيا ومصر يسهل وصول الامدادات ويجعل صورة الأحداث واضحة ، والتطورات العسكرية مفهومة .

(٣) القواعد العثمانية في شمال افريقيا كانت تستند إلى خلفية اسلامية واسعة مستعدة للتعاون إلى حد كبير مع العثمانيين .

(٤) رغم اصرار أسبانيا على مواصلتها لحملتها الصليبية

على شمال المغرب إلا أن المستعمرات الأمريكية كانت أكثر اغراء للأسبان من شمال أفريقيا[٤٥] .

الاستيلاء على العراق :

لم تضع موقعة جالديران نهاية للصراع الصفوي العثماني حول العراق ، وإنما تركت فتيلا كان من الممكن اشتعاله في أي لحظة . هذا الفتيل تمثل في استيلاء السلطان سليم في معركة جالديران على المناطق الشمالية بالعراق ، أما وسط وجنوب العراق فقد بقي في يد الصفويين حتى وفاة الشاه اسماعيل عام ١٥٢٤ . وبالنسبة لادارة بغداد فقد وضعت تحت اشراف حاكم يعين من قبل الشاه يطلق عليه الخان .

وبموت الشاه اسماعيل وتولى ابنه طهماسب البالغ من العمر عشر سنوات الحكم ، ضعف النفوذ الصفوي في بغداد مما أدى إلى ازدياد الصراع حول منصب حاكم بغداد ، وكان طبيعياً جداً أن ينعكس هذا الصراع على الصراع الصفوي العثماني ، بأن تسعى الفئات المتنازعة للحصول على تأييد احدى الدولتين الكبيرتين . وحدث فعلا أن استغل أحد الطامعين في حكم بغداد واسمه ذو الفقار فرصة وفاة الشاه اسماعيل فقام بمهاجمة بغداد وقتل حاكمها ابراهيم سليمان عام (١٥٠٨ ـ ١٥٢٤) وأعلن ولاءه للسلطان سليمان وطلب منه الحماية[٤٦] .

وقد حاول طهماسب استرداد بغداد عام ١٥٣٠ إلا انه فشل ، ولكن الخيانة نجحت حيث فشل السلاح ، فقد قام إخوة ذي الفقار باغتياله فأعيدت السيطرة الفارسية على بغداد وعين محمد خان واليا عليها عام ١٥٣٠[٤٧] . ورغم ذلك لم يتحرك السلطان سليمان ولم يعلن الحرب على طهماسب إلا عام ١٥٣٤ ، حيث خرجت القوات العثمانية من مركزها في حلب في ابريل عام ١٥٣٤ بقيادة الصدر الأعظم ابراهيم باشا ، وعبرت الفرات وتقدمت عبر كردستان إلى أذربيجان ، وزحف ابراهيم باشا على «تبريز» واستولى عليها ومكث فيها إلى أن لحق به السلطان في سبتمبر حيث بدأت المرحلة الثانية من الحملة ، فتقدم الجيش عبر طريق شمال غربي فارس دون أن يلقى مقاومة من جانب الصفويين ثم مر بطريق همدان ووصل إلى سهل العراق .. وهكذا استطاعت القوات العثمانية أن تقطع أي مدد ، ودخل العثمانيون إلى بغداد بدون قتال . هذا وقد أرهقت الحملة الجيش العثماني مما اضطره إلى البقاء في بغداد بضعة شهور ليريح قواته من ناحية ولينظم أحوال الولاية الجديدة من ناحية أخرى ، وعين بعد مغادرته عاصمة العباسيين والي ديار بكر السابق واليا على بغداد . ولقد كان السلطان سليمان حريصا على عدم الاساءة إلى مشاعر الشيعة باعتباره

سلطانا سنيا فزار الكثير من أضرحة الشيعة وأوقف لها مقاطعات عدة . كذلك بنى سد السليمانية لوقاية كربلاء من مياه الفيضان في الربيع وسماه كذلك نسبة لسليمان القانوني ، كما وسع الترعة المعروفة بالحسينية حتى تأتي بالماء باستمرار لزراعة المنطقة حول العتبات المقدسة(٤٨) .

وقبيل مغادرة سليمان بغداد ، هرع زعماء القبائل إلى بغداد معلنين ولاءهم وكان بينهم شيخ المنتفق وأمير البصرة الذي بعث بولده مانع حاملا المفاتيح ووسائل الخضوع . فألحقت البصرة على هذا النحو بالممتلكات العثمانية . وأصبحت امارة عثمانية وعين راشد واليا عليها . الا ان هذا الأخير لم يبق في السلطة طويلا نتيجة تمرده على السلطان ، فقاد اياس باشا ثاني حكام بغداد عام ١٥٤٦ ـ ١٥٤٧ حملة ضد راشد بن مغامس الذي فر إلى الاحساء بعد أن تداعت قوته ، وضمت البصرة والمناطق المحيطة بها إلى الامبراطورية العثمانية كولاية عثمانية ، وأصبح اياس أول والٍ عثماني على البصرة(٤٩) .

لم ينه احتلال العثمانيين للعراق النزاع الصفوي العثماني حول العراق حيث استمر هذا الصراع طوال القرن السادس عشر . وسعى الصفويون كثيراً لاسترداد العراق ، ونجحوا في الاستيلاء على بغداد في عهد الشاه عباس الصفوي عام ١٦٢٣ الا ان هذا الاحتلال لم يستمر طويلا حيث استطاع السلطان مراد الرابع فتح العراق مرة أخرى عام ١٦٣٨ وبعد ذلك بقى العراق تحت الحكم العثماني حتى الحرب العالمية الأولى . (نهاية الدولة العثمانية) .

الخاتمة :

مما تقدم نجد أنه من الواضح كل الوضوح ان جميع العوامل السابقة قد أسهمت بنسب متفاوتة في تغيير الاتجاه العثماني من الغرب إلى الشرق .

ونحن نتساءل في هذا المقام هل حركة التاريخ إذا توافرت لها عناصرها ، تعمل من تلقاء نفسها شأن ما يقول به الشيوعيون أو أصحاب التفسير المادي للتاريخ . فهؤلاء يقولون كما نعلم جميعاً ان حركة التاريخ تمشي غير مستأذنة ولا مأذونة من الانسان فهي فوق ارادة الفرد . ونستطيع أن نقول اننا لسنا من هذه الناحية من أنصار المادية التاريخية . لأننا نؤمن بأن الانسان عنصر مهم من عناصر الحركة التاريخية فلا بد أن يوجد الفرد المستجيب لهذه المرحلة التاريخية والمحرك لها(٥٠) . ونحن نعتقد ان سليم الأول كان المحرك لهذه الحقبة من التاريخ لما فيه من خصائص أجمع عليها المؤرخون . هذه الخصائص التي جمعت القدرات القيادية ـ الحربية ، والممكنات الحيوية الذهنية والجسدية(٥١) . حيث انه ما كان ينام إلا قليلا ،

متربصا ، متحفزا لا تعنيه مباهج الحياة ومسراتها . وكذلك اتصف السلطان سليم الأول بالقسوة والرهبة لانه بدأ عهده بقتل عدد كبير من اخوته وكبار رجال حاشية البلاط . وهكذا قرن اسمه في المؤلفات الأوروبية بـ Salim the Criminal (٥٢) . بالإضافة إلى كل الخصائص التي ذكرناها آنفاً فإننا نرى ان استجابته التلقائية لمنطق التاريخ ودعمه لحركته هي أهمها .

وقد تزامنت كما رأينا آنفاً حالة التشبع هذه ببروز الأخطار البرتغالية والأسبانية التي كانت تهدد العالم العربي ليس وحده وإنما أيضا كانت تشكل خطرا مستقبليا على الدولة العثمانية . فلذا ارتأت الدولة العثمانية مجابهة هذا الخطر قبل استفحاله والخروج له قبل أن يأتي لها . خاصة وإن الوطن العربي يومذاك لم يكن في حالة تسمح له بصد الأخطار . وهذا أيضا الذي شجع الدولة العثمانية على الشروع في السيطرة عليه والاستفادة من ثرواته .

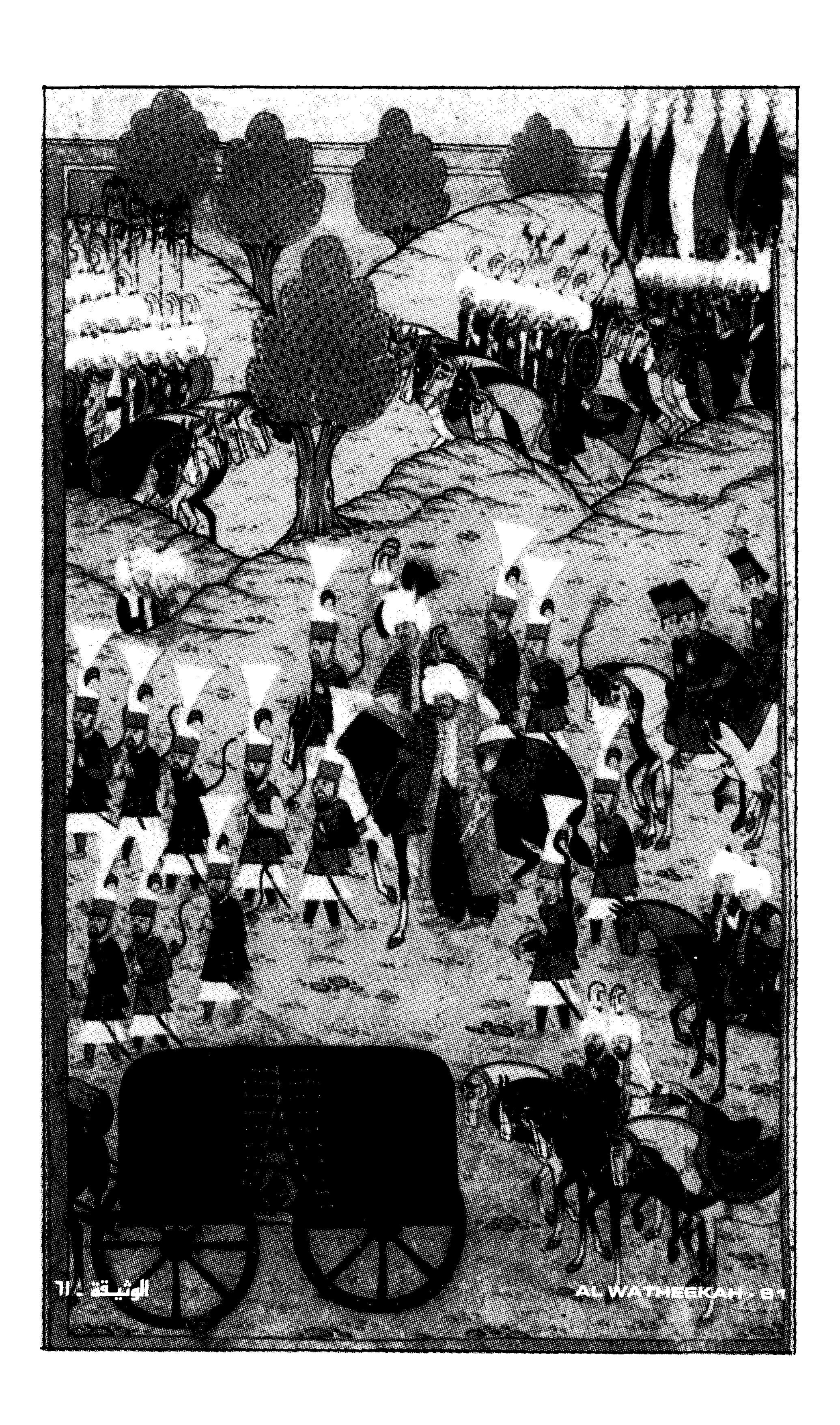
والواقع ان الحكم العثماني بالرغم من جميع ما يقال عنه قد أستطاع حماية العالم العربي من الاستعمار الغربي ومن التفكك ، وساعد أيضا على ترابط الشعوب العربية ، حيث كانت الزيارات العلمية على أشدها بين علماء المشرق والمغرب العربيين ،

ولا أدل على ذلك مما رأيناه بعد سقوط الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى كيف سيطرت الدول الغربية الاستعمارية على دول العالم العربي ومزقته أقطاراً وما زالت تعاني شعوبه إلى هذا اليوم من فوضى التجزئة والتقسيم .

د. فؤاد شهاب
جامعة البحرين

★★★★★

● نهاية المسيرة كانت سنة ١٥٦٦ في زجبار المجرية حيث توفي السلطان سليمان الكبير في ميدان القتال وفي خيمته. وقبل أن يتلقى الخبر بانتصار جيوشه الكاسح. وقد احيط نبأ وفاته بالكتمان حتى يتمكن ابنه وولي عهده سليم الثاني من التربع على سدة السلطة.





(١) لمزيد من التفاصيل انظر :
Gibbons, Herbert Adamms, "Foundation of the Ottoman Empire:A Histoory of the Osmamlis up to the death of Bayezid I, 1300-1403"

(٢) انظر أحمد عبدالرحيم مصطفى «في أصول التاريخ العثثماني» ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ص ١١١ ـ ١٨ . تفيد معظم اللدراسات التاريخية التي تناولت نشأة الامبراطورية العثمانية إلى أن الجنس العثماني والذي تشكل من جنسيات كثيرة «صرب ، ويونان ، وإيطاليون ، وألبانيون ، ووروس ، ومجريون ، وأرمن وعرب ومغول وفرس يعتبر من أغنى شعوب العالم في الدم ويشبهونه با لولايات المتحدة وكندا في العصر الحديث . وذلك بسبب التسامح الديني والعرقي الذي عرفت به الدولة العثمانية قبلل سقوط القسطنطينية .

(٣) احتل العثمانيون بورصة في عام ١٣٢٦ ، ونيقية في عام ١٣٣١ وباحتلالهم امارة قرة صي في عام ١٣٤٧ ، أصبحوا سادة المنطقة المواجهة لأوروبا . وكان كل انتصار للعثمانيين يأتي إلى صفوفهم بغزاة أخرين . وقد ترتب على ذلك ازدياد الامكانات العسكرية لامارتهم بأكثر مما تتحمله مواردها أو مساحتها ، وتحتم عليها الغزو لإشغال الغزاة . ولما كان مجال ذلك قد أصبح صعبا في الأناضول ، لوقوع معظم المناطق في أيدي امراء الغزاة الآخرين ، ولتعزيز البيزنطيين الدفاع عن الرقعة الصغيرة التي بقيت لهم فيه ، لذلك تطلعت امارة العثمانيين إلى التوسع في أوروبا .

لمزيد من التفصيل انظر د. عبدالكريم رافق «العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦» ، دمشق ١٩٧٤ ، الطبعة الأولى ، من ص ٣٤ ـ ٣٨ .

INALCIK H., "The Emergence of the Ottomans", The Cambridge History of Islam", 2 Vols., edited by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970. Vol I 263-291.

(٤) يرجع بعض من المؤرخين علاقة الود والمجاملة إلى الأسباب التالية :
أ ـ ان حدود البلدين كانت بعيدة كل منهما عن الأخرى فلم تنشب نتيجة

لذلك المشاكل الحدودية .

ب - ان الدولة العثمانية وحتى سقوط القسطنطينية في عام ١٤٥٣ كانت تعترف بالريادة للدولة المملوكية .

جـ - تركيز الجهود العثمانية يومذاك على محاربة القوى المسيحية وخاصة البيزنطيين .

(٥) محمد أنيس ، «الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ - ١٩١٤» ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة - ١٩٩٠ ص ١٠٢ .

(٦) يشبه شيخ المؤرخين المعاصرين أرنولد توينبي الخطر الصفوي على الدولة العثمانية بخطر تيمور لنك الذي انتصر على العثمانيين في عام ١٤٠٢ في معركة أنقرة .. وكانت هذه الهزيمة هي الهزيمة الوحيدة للعثمانيين في ثلاثة قرون متتالية .

أرنولد توينبي ، «تاريخ البشرية» ، الجزء الثاني ، نقله إلى العربية الدكتور نقولا زيادة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ١٨٤ .

(٧) الشيخ صفي الدين اسحق (١٢٥٢ - ١٣٣٤) من أردبيل في أذربيجان هو الجد الأول للأسرة الصفوية . وقد أسس طريقة صوفية أول من اتبعها هو حفيده الخواجة علي . أما أول من عنى بالسياسة والحرب من هذه الأسرة فهو الشيخ جنيد (جد الشاه اسماعيل) وقد تزوج الشيخ جنيد امرأة تركمانية من خلفاء تيمور في أذربيجان وديار بكر . وبعد تولي الشاه اسماعيل حكم فارس فرض الشيعة على أهاليها الذين قبلوها بسهولة مع انهم إلى أيامه كانوا سنة .

إنظر : حول جذور الصراع الصفوي العثماني ، محمد عبداللطيف هريدي ، «الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الاسلامي عن أوروبا» ، دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ .

(٨) بدر الدين عباس الخصوصي ، «الدولة الصفوية في مواجهة التحديات» ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٤٤ ، ص ١٤٥ .

(٩) محمد أنيس ، المرجع السابق ص ١٠٦ .

(١٠) لمزيد من التفاصيل حول الصراع العثماني الصفوي انظر :

عمر عبدالعزيز عمر ، «تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ - ١٩٢٢» - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت من ص ٦٥ - ٧٢ ، عبدالعزيز سليمان نوار ، «الشعوب الاسلامية» دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت ١٩٧٣ ص ص ١٣٩ - ١٥٠ ، إبراهيم أحمد العدوي ، «نهر التاريخ الاسلامي .. منابعه العليا وفروعه العظمى ، دار الفكر العربي ١٩٨٩ ص ٤٦٦ .

(١١) سيّار الجميل ، «العثمانيون وتكوين العرب الحديث ، من أجل بحث رؤيوي

معاصر» ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ١٩٨٩ ، الطبعة الأولى ، ص ٣٣٥ .

(١٢) محمد أنيس ، «الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ـ ١٩١٤) ، المرجع السابق ص ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(١٣) عبدالكريم رافق ، المرجع السابق ص ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(١٤) مما هو جدير بالذكر هنا ، ان الشاه اسماعيل الصفوي لم يقد جيشه إلى أية معركة طوال العشر السنوات التي أعقبت جالديران ، بل انصرف إلى الصيد أو إلى الخمرة لتبديد حزنه .

(١٥) يرى بعض من المؤرخين ان مساعدة العثمانيين للمماليك أثناء صراعهم مع البرتغاليين نابعة من رغبة العثمانيين في حماية مؤخرتهم في البلاد العربية من الخطر البرتغالي ، الذي كان يهدد استراتيجيتهم الشرقية وكذلك زعامتهم المنتظرة للعالم الاسلامي . بالاضافة طبعا إلى ان العثمانيين بصفتهم غزاة يقاتلون أعداء الدين ، كان عليهم مقاومة البرتغاليين وحماية الأماكن المقدسة في الحجاز .

انظر عبدالكريم رافق ، «العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦» المرجع السابق ص ٦٠ .

(١٦) نيقولاي ايفانوف ، «الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ ـ ١٥٧٤» ، نقله إلى العربية يوسف عطا الله ، راجعه وقدم له مسعود ضاهر ، الفارابي ، ١٩٨٨ ص ٥٥ .

(١٧) سميت هذه الامارة «بالبستان» نسبة إلى عاصمتها ، وسميت أيضا بامارة ذي القدرة ، أو القدرية ، نسبة إلى أسرة تركمانية حكمتها في الفترة بين ١٣٥٣ ـ ١٥٢٢ ، حين احتلها العثمانيون .

(١٨) محمد أنيس ، «الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ـ ١٩١٤)» ، المرجع السابق ص ١٠٩

(١٩) عبدالكريم رافق ، «العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦» ، المرجع السابق ص ٥٩ .

لمزيد من التفصيل حول صراع السلطان بايزيد وأخيه الأمير جيم انظر : محمد فريد بك المحامي ، «تاريخ الدولة العلية العثمانية» ، تحقيق احسان حقي ، دار النفائس ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ ، ص ص ١٧٩ ـ ١٨٢ .

(٢٠) محمد أنيس ، المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٢١) عمر عبدالعزيز عمر ، «تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ ـ ١٩٢٢» ، المرجع السابق ص ٧٣ .

(٢٢) نيقولاي ايفانوف ، المرجع السابق ص ص ٦٠ ـ ٦١ .

(٢٣) نفس المرجع السابق ص ٦١ .

(٢٤) يعزو بعض من المؤرخين توجه السلطان سليم الأول إلى مصر ، لتلبية العثمانيين لنداء الواجب والذي يتلخص في الدفاع عن الأقاليم الاسلامية ضد الهجمات والأخطار الخارجية . لقناعتهم بأنهم أقدر من الدولة المملوكية في الدفاع عن المنطقة وتوحيدها في صف واحد . ولذا لم يترددوا في استخدام السيف لتوحيد الشرق الأدنى العربي بأقاليمه في دولة واحدة .

(٢٥) رحب الخليفة المتوكل سليل العباسيين بحرارة بدخول سليم الأول إلى حلب ورأى فيه حاميا جديدا للاسلام . وقدم المتوكل الذخيرة المقدسة للبيت العباسي التي تضم عباءة وبضع شعرات من لحية النبي (ص) مع سيف الخليفة الثاني عمر لسليم اعترافاً منه بالجميل .

(٢٦) محمد فريد بك المحامي ، «تاريخ الدولة العلية العثمانية» ، المرجع السابق ص ١٩٣ .

سيار الجميل ، «العثمانيون وتكوين العرب الحديث» ، المرجع السابق ص ٣٦٣ .

(٢٧) محمد أنيس ، المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٢٨) ليلى الصباغ ، «الغزو البرتغالي والدولة العثمانية» ، بحث مقدم إلى ندوة «مكانة الخليج العربي في التاريخ الاسلامي» ، جامعة الامارات العربية المتحدة ـ العين ٢٦ ـ ٢٨ فبراير ١٩٩٠م ، ص ١٩ .

(٢٩) يقال بأن السلطان العثماني سليم الأول بعد جالديران أمر أميراله بيري باشا ببناء أسطول قوي مكون من مائة وخمسين سفينة بأحجام مختلفة إلى جانب مائة سفينة صغيرة . وكذلك أمر بنقل ترسانة السفن من «غاليبولي» إلى «القسطنطينية» ، حيث امكانية انشاء سفن أكبر من السفن السابقة . ويرجع سبب ذلك كما تروى القصة إلى ان السلطان سليم بعد ليلة من القلق ، أحضر بيري باشا وقال له : «إذا كان هؤلاء الأفاعي (ويقصد الفرنج) يملأون البحر سفنا ، وإذا كانت سفن البندقية ، والبابا ، وملوك الفرنجة ، هي المسيطرة على البحر المتوسط ، فذلك يرجع إلى كسلك وتهاونك ، وإلى تسامحي ، أريد أسطولا قويا عديد السفن .

ليلى الصباغ ، «الغزو البرتغالي والدولة العثمانية» ، المرجع السابق ص ٢٧ .

(٣٠) جمال زكريا قاسم ، «الخليج العربي في مواجهة البرتغاليين في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي» ، بحث مقدم إلى ندوة «مكانة الخليج العربي في التاريخ الاسلامي» ، جامعة الامارات العربية المتحدة ـ العين ٢٦ ـ ٢٨ فبراير ١٩٩٠م ، ص ٨ .

انظر أيضا : ليلى الصباغ ، المرجع السابق ص ٢٤ .

(٣١) عمر عبدالعزيز عمر ، المرجع السابق ص ٩٨ .

(٣٢) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ص ٧ .
(٣٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، المرجع السابق ص ٨٩ .
(٣٤) نفس المرجع السابق ، ص ٩٠ .
(٣٥) نفس المرجع السابق ، ص ٩٠ .
(٣٦) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ص٩٠ .
(٣٧) محمد عيسى صالحية ، «التدخل العثماني في اليمن» ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ـ العدد ٢٤ أكتوبر ١٩٨٠ ، ص ٩٧ .
(٣٨) صالح رمضان محمود ، «الصراع البرتغالي في اليمن ، ١٥١٧ ـ ١٥٣٨» ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية . العدد ٤٧ يوليو ١٩٨٦ . ص ١٤٥ .
(٣٩) انظر : R. MANTRAN, North Africa In the Sixteenth and Seventeenth Centuries" Cambridge.
(٤٠) عبدالعزيز سليمان نوار ، «الشعوب الاسلامية» ، المرجع السابق ١٠٤ .
(٤١) نيقولاي ايفانوف ، المرجع السابق ص ٩٧ .
هناك اختلاف حول أصل عروج وأخيه ، فمن قائل بأن والدهما كان نحاتا تركيا ، ومن قائل بأنه كان خزافا يونانيا .
(٤٢) عبدالكريم رافق ، المرجع السابق ص ص ٧٦ ـ ٧٧ .
(٤٣) نيقولاي ايفانوف ، المرجع السابق ص ١٠٥ .
(٤٤) عبدالعزيز سليمان نوار ، المرجع السابق ص ص ١١٩ ـ ١٢٣ .
لمزيد من التفاصيل حول التدخل العثماني في الجزائر انظر :
H. de GRAMMONT, Histoire d'Alger Sous La Domination Turque (1516-1830)", Paris 1887.
(٤٥) عبدالعزيز سليمان نوار ، المرجع السابق ص ١٢٤ .
(٤٦) محمد أنيس ، المرجع السابق ص ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .
(٤٧) نفس المرجع السابق .
(٤٨) عمر عبدالعزيز عمر ، المرجع السابق ص ٩٢ ـ ٩٣ .
(٤٩) محمد أنيس ، المرجع السابق ص ١٣٧ .
(٥٠) عندما اعتلى السلطان سليم الأول كرسي الحكم ، كانت ظروف الدولة العثمانية تتطلب رجلاً قوياً قادراً على إدارة الدولة بطريقة تتناسب والتحديات التي كانت تواجهها بعد فترة حكم لسلفه بايزيد دامت ثلاثين عاما .
(٥١) سيار الجميل ، «العثمانيون وتكوين العرب الحديث» ، المرجع السابق ص ٣٣٠ .
(٥٢) نفس المرجع السابق ، ص ٣٣٠ .